وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الجاحظ وآراؤه الاقتصادية في ضوء كتابه التبصر بالتجارة

رسالة تقدم بها الطالب
رفعت فيصل إبراهيم العزي

الى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية ـ جامعة ديالى
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة ماجستير آداب
في التاريخ الاسلامي

باشراف
الاستاذ المساعد الدكتور
عبد الباسط عبد الرزاق حسين

المبحث الأول
الجاحظ : حياته وسيرته

١ـ أسمه وكنيته ولقبه ونسبهُ

هو عمرو بن بحر بن محبوب ، ويكنى بأبي عثمان ، ولقب بالجاحظ أو الحدقي لجحوض عينيه ، أي نتوئهما، وكان هذا اللقب لا يُعجبه، على ما يظهر، فيتبرم بمن يدعوه به [١].

جهد الجاحظ أن يقر في أذهان الناس أن اسمه عمرو، وأنه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم، وأن اسم عمرو أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً وأن الجاحظ قد خلع على اسم عمرو وصف المظلوم ؛ لأن الناس قد ألصقوا به حرف الواو الذي لا يمت له بصلة أو يصل إليه بسبب ، وكان يقول عن اسمه الذي يتوق أن ينادوه الناس به : " إنّ هذا الاسم لم يقع في الجاهلية والإسلام إلا على فارس مذكور، أو ملك مشهور، أو سيد مطاع ، أو رئيس متبوع ، أمثال عمرو بن هاشم جد النبي (ﷺ) [٢] .

---

(١) الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ، (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م) . **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي، ط١ ، (بيروت . ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ، ج١٤ ص ١٢٤ ؛ ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسين الشافعي ، (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) . **تاريخ دمشق الكبير** ، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، ط١ ، دار الفكر ، (بيروت . ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ، ج٤٥ ص ٤٣٣ ؛ ياقوت الحموي ، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) . **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، ط١، (بيروت . ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، ج٥ ص٢١٠١ ؛ ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري ، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) . **اللباب في تهذيب الأنساب** ، مكتبة المثنى ، بغداد . لا ت، ج١ ص ٢٤٨.

(٢) العاملي ، بهاء الدين محمد بن حسين ، (ت١٠٣١هـ/١٦٢٢م) . **الكشكول** ، تحقيق محمد عبدالكريم النمري ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، (بيروت ، ١٤١٨هـ /١٩٩٨م) ، ج١ ص٣٢٩ ؛ جبر، جميل. **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع بالاشتراك مع دار الكتاب المصري، (بيروت . ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ، ص ٢٦ .

وقد ألّف رسالة فيمن يسمى من الشعراء عمراً[١] .

واختلف المؤرخون في أصله، فمنهم من يرى بأنه من موالي قبيلة كنانة[٢] ، وأنَّ جدَّ الجاحظ كان اسود البشرة يقال له فزارة وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني[٣] ، واستدلوا على ذلك برواية عن ابن أخت الجاحظ وهو **يموت بن المزرع البصري** (ت٣٠٤هـ/٨١٩م) [٤]: " كان فزارة جد الجاحظ أسود اللون، وكان جمالاً لعمرو بن قلع "[٥] ، وهذا يوحي بأن "الجد الاعلى للجاحظ، ربما كان أفريقياً اسود البشرة، وانه كان يعمل لدى سيده عمرو بن قلع الكناني جمالاً أي في تجارة القوافل. وقد اكتسب النسب العربي عن طريق الولاء لبني كنانة" [٦].

ويرى الخطيب البغدادي أنَّه من أصل عربي، وانه ينتمي إلى صليبة

---

(١) خفاجي، محمد عبدالمنعم. **أبو عثمان الجاحظ**، دار الطباعة المحمدية، (القاهرة . ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) ، ص ٥٥ .

(٢) ينسب إلى كنانة عدد من القبائل ، منها : كنانة قريش، ومنها جماعة انتسبوا إلى آبائهم وأجدادهم، وليسوا من القبائل . السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م). **الأنساب** ، تعليق عبد الله عمر البارودي، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت . ١٩٨٨) ، ج٥ ص٩٨.

(٣) هو **أبو القلمس عمرو** بن قلع الكناني ثم الفقيمي وهو أحد النسأة . ابن عساكر ، **تاريخ دمشق** ، ج٤٥ ص٤٣٣ .

(٤) وهو **يموت بن المزرع بن يموت ابو بكر العبدي من عبد القيس بصري** ، قدم بغداد في سنة ٣٠١ هـ ، وهو شيخ كبير ، وحدث بها ، وكان صاحب اخبار وملح وآداب ، وهو ابن اخت ابي عثمان الجاحظ واسمه يموت ثم تسمى محمداً ، ويموت الغالب عليه ، وخرج من بغداد الى الشام فمات هناك سنة (٣٠٤هـ / ٨١٩ م) (الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج١٦ ، ص٥٢٣) .

(٥) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ١٤ ص ١٢٤ ؛ ابن عساكر : **تاريخ دمشق** ، ج٤٥ ص ٤٣٣؛ ابن الأنباري ، كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري ، (ت٥٧٧هـ/١١٨١م) . **نزهة الألباء** ، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط٣ ، (الزرقاء/الأردن . ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ص١٤٨ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص٢١٠١.

(٦) الملاح، هاشم يحيى . **الجاحظ وإسهاماته الثقافية في تعزيز وحدة الأمة**، مجلة المورد، م٣٠، العدد ٣، بغداد، سنة ٢٠٠٢م، ص٤٧.

العرب، وأنه من قبيلة كنانة العربية[١] ، وأنّ " الجاحظ ينحدر من أصل عربي صريح خالص، ومن بيت كريم المحتد، عظيم المنزلة في الجاهلية والإسلام"[٢] .

وأنه كان عربي النسب، بدليل تكريسه لجهوده وحياته لخدمة العرب والعربية ، وتزعّم أكبر حركة قامت في وجه الشعوبية حتى هدمتها أو قضت عليها .

٢ـ ولادته:

ولد الجاحظ بالبصرة، ولا خلاف في هذا بين المؤرخين ، ولكن الخلاف في سنة ولادته ، فقيل : " إنه أبصر النور في البصرة سنة ١٥٠هـ ، وقيل : سنة ١٥٥ هـ ، وجعلها بعضهم سنة ١٥٩ هـ . وارتقى آخرون إلى سنة ١٦٣ هـ أو ١٦٤ هـ أو ١٦٥ هـ . والأرجح أن يكون عام ١٦٠ هـ هو تاريخ ميلاده الصحيح "[٣] .

وإلى هذا ذهب بعض المؤرخين والباحثين بان سنة ولادته هي سنة (١٦٠هـ/٧٧٧م) [٤] .

وقيل : ولد سنة (١٦٥هـ/٧٨٢م) [٥] .

---

(١) **تاريخ بغداد** ، ج ١٤ ص ١٢٤ ؛ ابن عساكر : **تاريخ دمشق** ، ج٤٥ ص ٤٣٣؛ ابن الأنباري ، **نزهة الألباء** ، ص١٤٨ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص٢١٠١.

(٢) خفاجي، **أبو عثمان الجاحظ**، ص١٩.

(٣) الجاحظ . **رسائل الجاحظ (الكلامية)**، تقديم وشرح علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال ، (بيروت . ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، مقدمة المحقق ص ٣١٣ .

(٤) سركيس ، يوسف الياس ، (ت١٣٥١هـ/١٩٣٢م) . **معجم المطبوعات العربية والمعربة** ، مطبعة سركيس ، (مصر . ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م) ، ج١ ص٦٦٦ ؛ أمين ، أحمد (ت١٣٧٣هـ/١٩٥٤م). **ضحى الإسلام** ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (مصر . لا ت) ، ج١ ص ٣٨٦ ؛ الزركلي ، خير الدين الدمشقي ، (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) . **الأعلام** ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر ، (بيروت . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ، ج٥ ص٢٣٩ ؛ الغريري، صبري احمد. **الجاحظ ودوره في التدوين التاريخي**، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى الجامعة المستنصرية، بغداد . ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص٣٨ .

(٥) الحاجري، طه. **الجاحظ حياته وآثاره**، دار المعارف، (مصر . ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) ، ص٧٩.

وقد روي عن الجاحظ أن سنة ولادته هي ١٥٠هـ/٧٦٧م ، قال : " أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها "[١] .

والسبب الذي دفع بعض المؤرخين المعاصرين إلى استبعاد حكاية الجاحظ ثلاثة أمور :

الأول : لو كان " ذلك صحيحاً لكان عمره عند وفاته مائة وخمس سنين، ولم يشر احد من مترجميه إلى هذا الكلام "[٢].

الثاني : ما قاله ياقوت الحموي : " مات الجاحظ سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز وقد جاوز التسعين "[٣] .

الثالث : إن أبا نواس لم يلد في هذا التاريخ ، بل ولد سنة (١٤٦هـ/٧٦٣م) أو قبلها [٤] .

أما ترجيح القول بأنه ولد سنة (١٦٠هـ) فهو أقرب الأقوال إلى الصحة ، وإن كان الذي يترجح لدى الباحث أنه ولد سنة (١٥٩هـ) على وجه الدقة ؛ لأن الجاحظ قال في السنة التي توفي فيها " " وأشدّ من ذلك ستة وتسعون أنا فيها "[٥] .

---

(١) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص٢١٠١ . وينظر أيضاً ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) . **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، (بيروت . ١٤١٥هـ /١٩٩٤م) ، ج٣ ص٤٧٤ .

(٢) بلات، شارل. **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، (دمشق . ١٣٨٠هـ/١٩٦١م) ، ص٩٢.

(٣) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص٢١٠١ .

(٤) ابن عساكر ، **تاريخ دمشق** ، ج١٣ ص ٤٦٤ ؛ الأنباري ، **نزهة الألباء** ، ص ٦٨ ؛ الزركلي ، **الأعلام** ، ج٢ ص٢٢٥ .

(٥) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص٢١٢١ ؛ البرقوقي ، عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد ، (ت١٣٦٣هـ/١٩٤٤م). **الذخائر والعبقريات** . معجم ثقافي جامع ، مكتبة الثقافة الدينية، (مصر- لا ت) ، ج٢ ص٥٣.

وقيل إنه : " مات الجاحظ سنة خمسٍ وخمسين ومائتين ، وقد ناطح المائة"[١] .

وبعد هذا فمن الغريب جداً أن محقق كتاب الحيوان محمد باسل عيون السود يقول في مقدمة تحقيقه : " من المتفق عليه أن ولادته كانت سنة (١٤٨هـ) "[٢] .

٣ـ أسرته :

بعد البحث في طيات كتب التاريخ والأدب ما يشير الى معلومات وافية عن اسرة عمرو بن بحر الا ما ذكر عن جده ، أما أبوه، فلا يعرف عنه شيء إلاّ اسمه ، وهذا يؤكد أنه لم يكن من عِلّية القوم، ولا من متوسطيهم، ويرجح أنه مات قبل أن ينضج ابنه الجاحظ ويذيع صيته، وإلاّ لكان قد اصابه شيء من شهرة أبنه .

وأما أمه ، فلا يعرف عنها إلاّ أنها كانت فقيرة رقيقة الحال، وكانت تنفق عليه وهو صغير، مما اضطره إلى كسب قوته ومواجهة أعباء الحياة مبكراً، كما سيأتي الحديث عنها في نشأته .

ولم يتزوج الجاحظ ، لذا لم يكن له ذرية[٣] ، ولا يعرف سبب ذلك على وجه الدقة ، وإن كان السبب دمامته المشهورة التي صرَّح بها ساخراً في مواضع بعض كتبه كما في قوله : " ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل[٤]

---

(١) اليغموري ، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الدمشقي ، (ت٦٧٣هـ/١٢٧٤م) . **نور القبس المختصر من المقتبس** ، تحقيق، رودلف زلهايم ، دار فرانتس شتاينر بفيسبادن ، ألمانيا . ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) ، ص ٣٦١ .

(٢) الجاحظ. **الحيوان** ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، (بيروت . ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣ م) ، مقدمة المحقق ص٤ .

(٣) بو ملحم ، علي، **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، دار الطليعة، (بيروت . ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٢٥٩.

(٤) هو **جعفر بن المعتصم**، بويع له بالخلافة في ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ/٨٤٧م)، وكان المتوكل قد جفا ابنه محمداً المنتصر، فأغروا القادة الأتراك بالأخير، وقتلوا المتوكل في شوال من سنة (٢٤٧هـ/٨٦٢) وكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام . اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر (ت

لتأديب ولده ، فلما نظر إليّ استبشع منظري، وأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصرفني فخرجت"[١] ، فالدمامة ليست وحدها سبباً يمنع من الزواج ، فقد تزوَّج كثيرون وصفوا بالقبح والدمامة .

٤ـ نشأته :

نشأ الجاحظ فقيراً معوزاً ، واشتغل في مستهل عمره ببيع السمك والخبز **بسيحان**[٢] ، وبعد اشتغاله بالعلم كانت أمه تعينه وتساعده في نفقاته[٣] .

والرغبة في التعلم رافقت الجاحظ منذ شبابه، فإنه لم يقع بيده كتاب قط ، إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، وكان يكتري دكاكين الوراقين ليلاً، ويبيت فيها للنظر والمطالعة[٤] ، و" جاء من مطالعاته الخاصة في الكتب

٢٩٢هـ/٩٠٤م)، **تاريخ اليعقوبي**، تعليق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، ط٤، (النجف . ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م) ، ج٣، ص٢٢٢-٢٣١.

(١) الوشاء، أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى ، (ت٣٢٥هـ/٩٣٦م) . **الموشى أو الظرف والظرفاء**، تحقيق كمال مصطفى، دار صادر، ط٢ ، (بيروت . ١٣٧١هـ / ١٩٥٣م) ، ص ٧٩ ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ، ج ٣ص٤٧١ ؛ اليوسي ، نور الدين أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد ، (ت١١٠٢هـ/١٦٩١م) . **زهر الأكم في الأمثال والحكم** ، تحقيق محمد حجي، محمد الأخضر ، الشركة الجديدة – دار الثقافة، (الدار البيضاء / المغرب . ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، ج١ ص٢٩٥ .

(٢) **سيحان** : نهر صغير بالبصرة . وسيحان اليوم منطقة تقع مقابل نقطة التقاء نهر الكارون بشط العرب. ياقوت الحموي . **معجم البلدان** ، دار صادر ، ط٢ ، (بيروت . ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ج٣ ص٢٩٣ ؛ الفاضلي ، أبو ذر حسين . **معجم المدن التاريخية** ، مطبعة ماضي ، (بغداد . ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م) ، ج ١ ص٣٣٦ .

(٣) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) . **البخلاء** . دار ومكتبة الهلال، ط٢ ، (بيروت . ١٤١٩هـ /١٩٩٩م) ، مقدمة عباس عبد الساتر ، ص ٦ ؛ ابن المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحيى، (ت٨٤٠ هـ/١٤٢٧م) . **طبقات المعتزلة**، تحقيق سُوسَنّة دِيفَلْد – فِلْزَر، دار مكتبة الحياة ، (بيروت . ١٣٨٠هـ/١٩٦١م) ، ص ٦٨ .

(٤) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي إسحاق النديم البغدادي ، (ت٣٨٥هـ/٩٥٥م) . **الفهرست** ، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط٢، بيروت/لبنان . ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ، ص١٤٨ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص٢١٠١ ؛ الذهبي ، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن

"[١] .

كما تردَّد على حلقات العلم التي كانت تعقد في مساجد البصرة ، وكان كثيراً ما يذهب إلى **المربد**(*) [٢] .

بدأ " المسجد في زمن مبكر كبيت مشترك يجتمع فيه المسلمون ... فهم ينتقلون من حلقة إلى حلقة مستمعين إلى محدث تارة ، والى مفسر تارة أخرى ، أو يتحدث الأفراد بينهم، أو يختلطون بين جموع المستمعين إلى القصاص .. وكان للجاحظ أصحاب من رواد المساجد .. اختلط بهم وشارك في أحاديثهم "[٣] .

وولع الجاحظ بالعلوم أثار امتعاض والدته التي كانت ترغب أن ينصرف ابنها بكليته إلى التجارة ، ولا يضيع عليه وقتاً ثميناً في الدراسة، فجاءته يوماً، بطبق كراريس، بدل الغذاء، فقال لها متعجباً : ما هذا؟ قالت:الذي تجيء به، فخرج مغتماً، وجلس في الجامع ووجد **موسى ابن عمران**[٤] جالساً، فلما رآه مغتماً، قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث، فادخله المنزل، وقرّب إليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق،

قايماز التركماني ، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) . **تاريخ الإسلام** ، تحقيق بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، (بيروت . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) ، ج٥ ص١١٩٣ .

(١) فروخ ، عمر . **تاريخ الأدب العربي**، دار العلم للملايين، (بيروت . ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ج٢، ص٣٠٤.

(*) **المربد** : وهو مكان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من البوادي للتجارة وتبادل السلع . يتلقي اللغة والفصاحة مشافهة من الأعراب .

(٢) خطيب دمشق ، جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي، (ت٧٣٩هـ/١٣٣٩م). **الإيضاح في علوم البلاغة** ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ، ط٣، (بيروت . لا ت) ، ج١ ص ١٥٠ ؛ الشكعة ، مصطفى . **مناهج التأليف عند العلماء العرب** ، دار العلم للملايين ، ط٥ ، (بيروت . ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م) ، ص ١٣٥ .

(٣) بلات ، **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** ، ص٣٤٢-٣٤٣ .

(٤) هو **موسى بن عمران البغدادي** من كبار المتكلمين حكى عنه الجاحظ . ابن حجر العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي ، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) . **نزهة الألباب في الألقاب** ، تحقيق عبدالعزيز بن محمد بن صالح السديدي ، مكتبة الرشيد ، (الرياض . ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ، ج٢ ص٢٠٦.

واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت:من أين لك هذا؟ قال:من الكراريس التي قدمتها إليَّ "[١] .

٥ـ أوصافه :

كان الجاحظ " قصير القامة، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذنين، أسود اللون، جاحظ العينين، مشوّه الخلقة، حتى قيل فيه :

لو يُمسَخُ الخِنزيرُ مَسْخاً ثانياً ... ما كانَ إلاَّ دونَ قُبحِ الجاحِظِ[٢]

ولما علم الجاحظ أن هذا العيب الخلقي لا يمكن إخفائه أو التستر عليه ، وأن المكابرة والمخاصمة لا تنفع معه ، لجأ إلى السخرية من شكله، والتهكم من بشاعة صورته " من ذلك ما حكي عنه أنه قال : ما أخجلني أحد قط إلا امرأة أخذت بيدي ، وحملتني إلى نجار وقالت له : مثل هذا ، ثم تركتني وانصرفت ، فبقيت متعجباً من أخذها لي مثالاً ، فسألت الصانع ، فقال : إن هذه المرأة سألتني أن أصنع لها تمثالاً للشيطان تفزّع به ولدها ، فقلت لها : إني لم أر شيطاناً قط حتى أعمل على مثاله ، وطلبت منها تمثالاً ، فقالت أنا آتيك به فجاءتني بك "[٣] .

من هذا يمكن أن نستنتج جملة صفات في شخصية الجاحظ ، فهو شخص عصامي نجح في تكوين نفسه بنفسه حتى ارتقى أرفع المنازل العلمية .

اما إمكانيته العلمية الكبيرة ، وذكاؤه ، وقدرته على الإحاطة

---

(١) ابن المرتضى ، **طبقات المعتزلة** ، ص٦٨ .

(٢) الزوزني ، عبد الله بن محمد بن يوسف العبدلكاني ، (ت٤٣١هـ/١٠٤٠م) . **حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء**، دار الكتب العلمية ، (بيروت . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ، ص١٩٧ ؛ الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي ، (ت٥٣٨هـ/٩٦٩م) . **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** ، مؤسسة الأعلمي، (بيروت . ١٤١٢هـ/١٩٩١م) ، ج٢ ص ١٨٤؛ الجاحظ ، **البخلاء** ، ص ٨ المقدمة .

(٣) الوطواط ، أبو إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي ، (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) . **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت . ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ، ص٢٤١ .

بالمعارف، وموسوعيته ، وغيرها من الصفات الإبداعية التي أهلته لتبوء هذه المكانة العلمية الكبيرة .

قدرته الكبيرة على تكييف الواقع لصالحه ، فإن دمامته لم تمنعه من التفاعل في المجتمع ، وخلافاً لما يفعله كثيرون من العزلة والانطواء ، فقد سخر هذه الدمامة لصالحه عبر طرائفه التي كان يحكيها .

روحه المرحة وحس الدعابة العالي لديه ، وهذا يظهر في كتاباته التي امتزج فيها الجد بالهزل ، واقتناصه المواقف الطريفة في حياة الناس.

قدرته على مواجهة الأزمات والمواقف الصعبة ما يعني أنه كان صلب العود ، قوي الشكيمة .

وظف العزلة الاجتماعية التي عاشاها وعدم تزوجه إلى مجال من مجالات الإبداع ، فاستغرق وقته في الكتابة والتأليف .

كان على جانب عظيم من قوة البنية، وشدة الأسر، ومتانة الأعصاب، وحضور الذهن، وقوة العقل، يشهد على هذا مواصلته التأليف والكتابة حتى وفاته مع تقدمه في السن كما ستبين في سبب وفاته .

كان سخياً معتدلاً في إنفاقه وفي سلوكه كله ، يدل على هذا نقده للبخلاء في كتابه الشهير البخلاء ، وقد أثر عنه قوله : " يجبُ للرجل أن يكون سخيّاً لا يبلغُ التبذير، شجاعاً لا يبلغ الهَوَج، محترساً لا يبلغ الجبن، ماضياً لا يبلغ القِحَة، قوَّالاً لا يبلغ الهَذَرَ، صموت لا يبلغ العيَّة، حليماً لا يبلغ الذُّلَّ، منتصراً لا يبلغ الظُّلم، وقُوراً لا يبلغ البلادة، ناقداً لا يبلغ الطيش؛ ثم وجدنا رسول الله (ﷺ) قد جمع ذلك في كلمة واحدة، وهي قوله: " خير الأمور أوساطها "[1] .

---

(1) ابن المزرع ، أبو بكر يموت بن المزرع العبدي البصري، (ت٣٠٤هـ/٩١٦م) . **الأمالي**، تحقيق إبراهيم حسين صالح، دار البشائر ، (دمشق . ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ، ص ١٢ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص ٢١٢٠ ؛ الوطواط ، **غرر الخصائص** ، ص٢٨ .

كان يكره الوساطة ، ويأنف أن ينال الناس حقهم من غير بذل جهد واستحقاق يقول الجاحظ : " سألني بعضُهم كتاباً بالوصية إلى بعض أصحابي، فكتبت له رقعة وختمتها، فلمّا خرج الرجل من عندي فضها، فإذا فيها " كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك"[١] .

٦ـ عقيدته :

أخذ الجاحظ بمبادئ الاعتزال الخمسة الأساسية منها، وهي العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولكنه افترق عن سائر المعتزلة بآراء خاصة انفرد بها، فعد على أساسها صاحب فرقة مميزة عن فرق الاعتزال دعيت الجاحظية[٢] .

٧ـ رحلاته :

لم ينقل عن الجاحظ أنه رحل أو سافر إلى خارج العراق لأي غرض كان ؛ ولكن ثبت تنقله بين البصرة وبغداد وسامراء، وهذه المدن فيها الولادة والنشأة والثقافة، كما أن كلا من بغداد وسامراء صارتا عاصمة للدولة العباسية ، وهذا يفسر سبب سفره إليهما[٣] .

ويدلُّ على هذا أنَّ أحدهم أراد أن يلتقي بالجاحظ ، إذ يقول: "خرجت لا أعرجُ على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه فقيل: هو بسر من رأى،

---

(١) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ٣ ص٣٩٣ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١٠٦.

(٢) البغدادي ، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد الإسفرائيني التميمي، (ت٤٢٩هـ/٨٦٣م) . **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية** ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الآفاق الجديدة ، ط٢ ، (بيروت . ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ١٦٠ ؛ الشهرستاني ، محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد ، (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) . **الملل والنحل** ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، (بيروت . ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج١ ص٧٥ ؛ السمعاني ، **الأنساب** ، ج٣ ص ١٦٢ .

(٣) بلات، **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**، ص١٢١ .

فأصعدت إليها ، فقيل لي : قد انحدر إلى البصرة ، فانحدرت إليه"[١].

يقول شارت بلات : " لم يكن لدى الجاحظ وسيلة أو ميل للقيام بأسفار بعيدة على اعتبار أنه لم يكن متخصصاً بالحديث ، وأن وطنه البصرة كان كافياً لإشباع نهمه للمعرفة، فمن المرجح أنه شعر بعد أن جمع ثروة بالحاجة إلى التعريف على جزء من العالم الإسلامي يقع خارج إطار منطقة تقع بين البصرة والكوفة والأهواز وبغداد وسامراء "[٢] .

لقد وردت إشارات أوردها الجاحظ أو غيره تفيد أن الجاحظ قد ارتحل إلى بعض البلدان وأقام فيها؛ ولكن آخرون رفضوا هذا أو لم يوثقوه أو يؤكدوه ، ويقول بلات : " وليس لدينا أي دليل على أداء الجاحظ لفريضة الحج ، وهذا شيء مستغرب "[٣] .

ولعل تفسير هذا في قول الذهبي : " كان ماجناً ، قليل الدين، له نوادر "[٤] .

يقول بلات : إن سفره إلى دمشق وأنطاكية " هو في حكم التأكيد ، وكذلك سفره فيما بعد برفقة **الفتح بن خاقان**[٥] في سنة ٢٢٣هـ . ٢٤٤هـ/٨٥٧م . ٨٥٨م إلى دمشق[٦] .

---

(١) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١١٧ .

(٢) بلات ، **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** ، **ص** ٣٩٨ .

(٣) بلات ، **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** ، ص ٣٩٩ .

(٤) الذهبي ، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن احمد التركماني ، **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط٩ ، (بيروت . ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ، ج ٩ ص٤١٣ .

(٥) **هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج**، أبو محمد، أديب ، فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذه المتوكل العباسي أخاً له، واستوزره وجعل له إمارة بلاد الشام على أن ينيب عنه. وكان يقدمه على جميع أهله وولده. وألف كتاباً سماه " اختلاف الملوك " وكتابا في " الصيد والجوارح " وكتاب " الروضة والزهر " وقتل مع المتوكل في سنة (٢٤٧هـ /٨٦١ م) . الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج١٢ ص ٣٨٤ ؛ الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، ج٩ ص ٤٧٢ .

(٦) **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** ،ص ٣٩٩ .

ويمكن أن نقول انه سافر إلى بلاد الشام وأنطاكية صراحة ، إذ قال الجاحظ: " أنّي رأيت الثلث الأعلى من منارة مسجد **أنطاكية**[١] أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بال هذا الثلث الأعلى أجدّ وأطرى؟"[٢].

وقال أيضاً : " واحتاج أصحابنا إلى التسلّم من عضّ البراغيث، أيام كنّا بدمشق، ودخلنا أنطاكية، فاحتالوا لبراغيثها بالأسرّة فلم ينتفعوا بذلك؛ لأن براغيثهم تمشي "[٣] .

فهذا يدل على سفره إلى بلاد الشام والى أنطاكية .

٨ـ مناصبه :

بعد أن ذاع صيت الجاحظ تقرب إليه كبارات رجال الدولة، فانتقل إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وقربه الخلفاء والوزراء ، فحضر مجلس الخليفة **المأمون**[٤] ، في مناسبات مختلفة[٥] ، وقد أسند إليه ديوان الرسائل ومارس عمله ثلاثة أيام ، ثم إنه أستعفى فاعفي منها[٦].

ومع أن ديوان الرسائل أهم من بيت الحكمة ، إلا أنه اعتذر للمأمون

---

(١) **أنطاكية** : مدينة يونانية تقع غربي مدينة حلب على نهر العاصي قريباً من مصبه في البحر المتوسط. سلخت من سوريا سنة ١٩٣٨م وضمت إلى تركيا مع لواء الأسكندرونة ، وهي تبعد ٣٠ كم من البحر المتوسط . ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ، ج١ ص٢٦٦ ؛ الفاضلي ، **معجم المدن التاريخية** ، ج١ ص٣٨.

(٢) **الحيوان** ، ج٤ ص ٣٣٤ .

(٣) **الحيوان** ، ج٥ ص ٢٠٠ .

(٤) **هو عبد الله بن هارون** الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس ، وأمه باذغيسية تسمى مراجل . سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه. توفي سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م) ودفن في طرسوس . المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) . **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، وضع فهارسها ، يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤ ، (بيروت .١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ج٢ ص ٢٤٧ – ٢٦٩ . الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ١٠ص ١٨٣ .

(٥) الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص٢١٤.

(٦) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص٢١٠٣ .

وطلب إعفاءه بعد ثلاثة أيام ، وكان هذا المنصب مهماً في الدولة لا يتولاه إلا من له مقدرة كبيرة ومعرفة واسعة بشؤون الكتابة، فيبدو أن معرفة المأمون باهتمامات الجاحظ جعلته ينصرف عن تكليفه بذلك[١] .

ويقول ياقوت الحموي عن أثر استعفاء الجاحظ : " فلو ثبت الجاحظ في هذا الديوان لأفلَّ نجم الكتاب "[٢] .

ومع ذلك ظلت علاقة الجاحظ وطيدة بالخلافة العباسية وكبار رجال الدولة ، فنتقل إلى سامراء إثر انتقال عاصمة الخلافة إليها، وكان موضع رعاية الخلفاء وعنايتهم ، فقد أرسل إليه المتوكل ليطمئن عليه في مرضه[٣] ، بل إن الخليفة المتوكل قد طلب أن يحمل الجاحظ إليه من البصرة في السنة التي قتل فيها[٤] .

وكان الجاحظ ملازماً للوزير **محمد بن عبد الملك الملقب بابن الزيات**[٥] ، الذي أقطعه أرضاً واسعة سميت بالجاحظية[٦].

ولما قُبض على الوزير ابن الزيات، " هرب الجاحظ فقيل له. لم هربت؟ قال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور، يريد ما صنع بمحمد، وإدخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه،

---

(١) الخفاجي، زينب عبد الكريم حمزة . **الخطاب العربي وخصائصه عند الجاحظ** . دراسة تحليلية ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية للبنات . جامعة بغداد ، (بغداد . ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) ، ص٥٣ .

(٢) **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١٠٣.

(٣) القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون البغدادي ، (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م) . **الأمالي ـ شذور الأمالي ـ النوادر** ، عني بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢ ، (مصر . ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م) ، ج١ ص٥٠ ، ج١، ص٥٠.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج١٦، ص١١٣.

(٥) **هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة**، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم، وكان من العقلاء الدهاة، وفي سيرته قوة وحزم ، ولما ولي المتوكل نكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد سنة (٢٣٣هـ/٨٤٧م). الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ٢ص ٣٤٢ ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص٩٤-١٠١ .

(٦) ابن المرتضى، **طبقات المعتزلة**، ص٦٩.

فعُذب هو فيه حتى مات (يعني محمد بن الزيات)"[١].

وجيء بالجاحظ إلى **أحمد بن أبي دؤاد**[٢] بعد مقتل ابن الزيات، مقيداً في جبة صوف، فقال له ابن أبي دؤاد: والله يا عمرو ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، جاحداً للصنيعة، معدداً للمثالب، مخفياً للمناقب، وأن الأيام لا تصلح مثلك، لفساد طويتك، وسوء اختبارك. فقال له الجاحظ: خفض عليك، فوالله، لأن تكون المنة لك عليّ، خير من أن تكون لي عليك ؛ ولأن تعفو في حال قدرتك، أجمل بك من أن تنتقم . فقال له ابن ابي دؤاد: ما علمتك إلا كثير تزويق اللسان، فعفى عنه، فلما كان من الغد، شوهد الجاحظ متصدراً في مجلس ابن أبي دؤاد، وعليه خلعة من ثيابه وهو مقبل عليه بوجهه، يقول: هات يا أبا عثمان[٣] .

وهذه الواقعة تدلّ على ما للجاحظ من مكانة ، كما تشير إلى قوة الجاحظ في الإقناع .

٩ـ مرضه ووفاته:

عاش الجاحظ ما يربو على التسعين عاماً، حتى داهمه المرض، واستفحل حتى استيأس منه الطبيب، فقد أصيب أبو عثمان الجاحظ

---

(١) الآبي ، أبو سعد منصور بن الحسين الرازي ، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) . **نثر الدر في المحاضرات**، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ـ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م) ، ج٢ ص١٥٢ ؛ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ج٥ ص٢١٠٢ ؛ الوطواط ، **غرر الخصائص** ،ص ٥٢٢.

(٢) هو **أبو عبد الله احمد بن أبي دؤاد، القاضي**، ولاه المعتصم منصب قاضي القضاة، وكان بينه وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء، وتوفي بمرض الفالج في المحرم سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م) . ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٣ ص ١٢٧٩ ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١ ص٨١-٩١.

(٣) التنوخي ، أبو علي المحسن بن علي ، (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) . **الفرج بعد الشدة**، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، (بيروت . ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م) ، ج١، ص٣٦١.

بالفالج[١] ، فاعتزل الناس، إلا أقلّهم، وقد تحدث عن عجزه المضني في كتابه (الحيوان)، معتذراً عن اضطراب بعض فصوله فقال:" وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أولى ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب"[٢].

وذُكر أن الجاحظ أصيب بالفالج أثر جمعه بين اللبن والسمك[٣] .

ويروى أن أبا معاذ عبدان الخولي الطبيب قد دخل يوماً (بسر من رأى) على عمرو بن بحر الجاحظ يعوده وقد فلج، فلما أخذ مجلسه أتى رسول المتوكل ينشد الجاحظ فقال:" وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل، ثم أقبل علينا فقال: ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث وأكثر ما أشكوه الثمانون، ثم أنشد :

يا ابن الذي دان له المشرقان طراً وقد دان له المغربان

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٤]

وقد حدث يموت بن المزرع بأن المتوكل قد وجه في السنة التي قتل فيها أن يحمل إليه الجاحظ من البصرة فقال لمن أراد حمله : وما يصنع

---

(١) **الفالج** : وهو غياب الحركة جزئياً أو كلياً من أحد شقي البدن، الرازي ، أبو بكر محمد (ت٣١٣هـ/٩٢٥م). **المنصوري في الطب**، تحقيق د. حازم البكري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ط١، (الكويت . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ص٦٦١ ، وهو المرض المعروف بالشلل النصفي.

(٢) **الحيوان** ، ج ٤ ص ٣٦١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي ، (ت٦٦٨هـ/١٢٧٠م) . **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، شرح وتحقيق نزار رضاء ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت . ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م) ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤.

(٤) القالي ، **الأمالي . شذور الأمالي . النوادر** ، ج١ ص٥٠ ؛ الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ، (ت٤٥٣هـ) . **جمع الجواهر في الملح والنوادر**، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط٢ ، (بيروت . ١٤١٨هـ /١٩٩٨م)، ص٢٣٧ .

أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذي شق مائل، ولعاب سائل، وفرج بائل، وعقل حائل[١]؟

وحدث المبرد[٢] تلميذ الجاحظ بأنه قد دخل على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له:كيف أنت؟ فقال:كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس*، لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ستة وتسعون أنا فيها، ثم أنشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب؟

لقد كذبتك نفسك لبس ثوب دريس كالجديد من الثياب[٣]

وقال لمتطبب يشكو إليه علته:اصطلحت الأضداد على جسدي، إن أكلت بارداً أخذ برجلي، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي"[٤].

ولا خلاف بين المؤرخين أن الجاحظ قضى نحبه في يوم من أيام شهر محرم سنة (٢٥٥هـ/٨٦٩م)[٥] ، إلا ما ذكره ياقوت الحموي من قول

---

(١) **الأمالي**، ص ١٢ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء**، ج ٥ص ٢١٢١؛ البرقوقي، **الذخائر** ،ج٢ص٥٢.

(٢) **هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري** إمام العربية ببغداد في زمانه إخباري علامة ، له من التصانيف : معاني القرآن ، الكامل ، المتقضب ، وغير ذلك ، مات سنة (٢٨٥هـ/٨٩٩م) ببغداد ودفن بمقابر الكوفة . الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ،ج٣ ص٣٨٠ ؛ السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن ، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) . **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا/لبنان . ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م) ،ج١ ص٢٦٩ – ٢٧١ .

* وهو داء أو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين واصابع الرجلين ، الزبيدي ، تاج العروس ، مادة نقرس ، ج١٦ ، ص ٥٧٣.

(٣) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص ٢١٢١ ؛ البرقوقي ، **الذخائر** ، ج٢ ص٥٢ .

(٤) ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ٢٠٩ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص ٢١٢١ ؛ الذهبي . **سير أعلام النبلاء** ، ج١١ ص ٥٣٧ .

(٥) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ٣ ص٣٩٣ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١٠٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٧٥ ؛ ابن المرتضى، **طبقات المعتزلة** ، ص٧٠ ؛ كارل، بروكلمان . **تاريخ الأدب العربي** . ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، (مصر ١٣٨١هـ/١٩٦٢م) ، ج٣، ص١٠٦-١٠٧؛ الزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص ٧٤ .

ذكره بصيغة التمريض أن تاريخ وفاته هو "خمسون ومائتان"[١] .

وقيل في سبب وفاته : إنه زحف وحيداً إلى مكتبته المكتظة بالكتب المكدسة فانهالت مجلداتها الضخمة عليه، و"كان من عادته أن يضعها قائمة، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها[٢] .

المبحث الثاني
جهوده العلمية ومكانته

١ـ شيوخه :

تتلمذ الجاحظ على يد كبار علماء عصره ، في مختلف العلوم والمعارف .

ففي رواية الحديث النبوي الشريف، حدث عن **حجاج بن محمد**[٣]

---

(١) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١٠٦.

(٢) الزركلي ، **الأعلام** ، ج٥ ص٧٤ .

(٣) **هو حجاج بن محمد**، أبو محمد الأعور، ترمذي الأصل، توفي ببغداد في شهر ربيع الأول سنة (٢٠٦هـ/٨٢١م) ، وكان ثقة صدوقاً . البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي ، (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م) . **التاريخ الكبير** ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد / الدكن . لا ت ، ج٢ ص٣٨٠ ؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٩ ص١٤٢ .

وأبي يوسف القاضي[١] ، وغيرهما [٢] .

وفي الأدب سمع من **أبي عبيدة**[٣] الذي قال عنه الجاحظ : " لم يكن في الأرض خارجي ولا جمّاعي أعلم بجميع العلوم منه "[٤] ، **وأبي زيد الأنصاري**[٥] ، **والأصمعي**[٦] الذي قال عنهم السيوطي " هؤلاء الثلاثة كانوا أئمة الناس في اللغة، والشعر، وعلوم العرب، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم، عنهم أخذ جُلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله "[٧].

وأخذ الجاحظ النحو عن **أبي الحسن الأخفش**[٨] .

---

(١) **هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي** ، من أهل الكوفة، وصاحب أبي حنيفة . رحمه الله تعالى . ، كان فقيهاً عالماً، سكن بغداد، وتولى القضاء بها، وكانت ولادته سنة (١١٣هـ/٧٣١م) وتوفي سنة (١٨٢هـ/٧٩٨م) . ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٦، ص٣٧٨-٣٨٩ ؛ القرشي ، أبو محمد محيي الدين عبدالقادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء الحنفي، (ت٧٧٥هـ/١٣٧٤م) . **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ، مير محمد كتب خانه ، كراتشي . لا ت ، ج٢ ص ٢٢٠.

(٢) الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ١٤ ص ١٢٤ ؛ السمعاني، **الأنساب**، ج٣، ص١٦٢؛ الأنباري ، **نزهة الألباء** ، ص١٤٨ .

(٣) **هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي** من تيم قريش ، وهو مولى ، وله مصنفات كثيرة منها مجاز القرآن وغيره ، ولد سنة (١١٤هـ/٧٣٢م) ، وتوفي سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م) . ابن النديم ، **الفهرست**، ص ٧٩ ؛ ابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، ج٢ ص ١٠٥ .

(٤) الجاحظ . **البيان والتبيين** ، دار ومكتبة الهلال، (بيروت . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) ، ج١ ص٢٨٠ .

(٥) **هو سعيد بن أوس بن ثابت**، أبو زيد الأنصاري صاحب النحو واللغة، وكان ثقة ثبتاً من أهل البصرة، توفي بالبصرة سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م) وله ثلاث وتسعون سنة . الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٩ ص(٧٧-٨٠) ؛ ابن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، ج ١ص ٢٠٧ .

(٦) **هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي**، المعروف بالأصمعي الباهلي، كان صاحب لغة ونحو، وإماماً في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وهو من أهل البصرة، كانت ولادته سنة (١٢٢هـ/٧٣٩م) ، وقيل غيرها ، وتوفي سنة (٢١٧هـ/٨٣٢م) بالبصرة، وقيل بمرو . السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان ، (ت٣٦٨هـ/٩٧٩م) . **أخبار النحويين البصريين** ، تحقيق طه محمد الزيني، ومحمد عبدالمنعم خفاجي ، مصطفى البابي الحلبي ، (مصر . ١٣٧٣هـ/١٩٦٦م) ، ص ٥٨ ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص١٧٠-١٧٦ .

(٧) **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، تحقيق فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، (بيروت . ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ، ج٢ ص ٣٤٤ .

(٨) **هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي** النحوي البلخي المعروف بالأخفش الأوسط، أحد نحاة البصرة، توفي سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م) . ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ٧٧- ٨٨ ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٣٨٠-٣٨١.

وأخذ عن **صالح بن جناح اللخمي**[١] الذي أدرك الأتبّاع وكلامه مستفاد في الحكمة[٢].

وكان أستاذه من المعتزلة **أبي إسحاق النظام**[٣].

ومن أساتذته **موسى بن سيار الأسواري**[٤] الذي قال عنه الجاحظ: " إنه كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثمّ يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري، ولم يكن في هذه الأمة بعد أبي موسى الأشعري أقرأ في محراب من موسى بن سيار "[٥].

٢ـ تلاميذه :

---

(١) **هو صالح بن جناح اللخمي** الشاعر أحد الحكماء ، توفي سنة (٣٩٥هـ/١٠٠٤م) . ابن عساكر : **تاريخ دمشق** ، ج٢٣ ص ٣٢٥ ؛ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله ، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) . **الوافي بالوفيات** ، تحقيق أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، (بيروت . ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م) ، ج١٦ ص ١٤٧ .

(٢) ابن عساكر : **تاريخ دمشق** ، ج٢٣ ص ٣٢٥ .

(٣) **هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري** ، أبو إسحاق النظام ، من أئمة المعتزلة متبحر في علوم الفلسفة ، انفرد بآراء خاصة ، وتبعته فرقة من المعتزلة سميت بالنظامية ، توفي سنة (٢٣١هـ/٨٤٥م) . الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج٦ ص٩٧-٩٨ ؛ ابن المرتضى، **طبقات المعتزلة**، ص٥١-٥٢ .

(٤) **هو موسى بن يسار الأسواري**، من القصاص ، ضعيف الحديث ، غير اسم أبيه إلى يسار . كان من القدرية توفي سنة (١٥٠هـ/٧٦٧م) . ابن أبي حاتم ، أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي ، (ت٣٢٧هـ/٩٣٩م) . **الجرح والتعديل** ، دار إحياء التراث العربي (بيروت . ١٢٧١هـ/١٩٥٢م) ، ج٨ ص ١٤٦ ؛ ابن حجر العسقلاني . **لسان الميزان**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية ، (بيروت . ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ، ج٨ ص ٢٠٢ .

(٥) **البيان والتبيين** ، ج١ ص ٢٩٣ .

مع أن الجاحظ كان ميالاً للعزلة ، إلا أن هذا لم يمنع من أن يتتلمذ عليه كثيرون ، لاسيما وأنه رأس المدرسة الجاحظية في الاعتزال ، كما أن قربه من الخلفاء والوزراء أسهم في تنامي شهرته بين الناس ، فكان من الطبيعي أن يقبل عليه طلبة العلم .

وفي الحديث النبوي الشريف، روى عنه **أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني**(١) ، وابن بنت أخته يموت بن المزرع"(٢).

وكان طلاب العلم يتوافدون من كل البقاع لملاقاة الجاحظ ، فقد روي عن أبي محمد الحسن بن عمرو، قال: كنت بالأندلس ، فقيل لي: إنّ بها تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ ، يعرف بسلام بن زيد، ويكنى أبا خلف ، فأتيته، فرأيت شيخا ، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان، ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس؟ فقال: كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان، فوقع إلينا كتاب التربيع والتدوير ، فأشاروا إليه، ثم أردفه عندنا كتاب البيان والتبيين ، فبلغ الرجل الصكاك بكتابة هذين الكتابين. قال: فخرجت، لا أعرّج على شيء، حتى قصدت بغداد، فسألت عنه، فقيل لي: هو بسر من رأى. فأصعدت إليها، فقيل: قد أنحدر إلى البصرة. فانحدرت إليه، وسألت عن منزله، فأرشدت، فدخلت إليه، وإذا هو جالس وحواليه عشرون صبيا، ليس فيهم ذو لحية غيره. قال: فدهشت، فقلت: أيّكم أبو عثمان؟ فرفع يده، وحرّكها في وجهي، وقال: من أين؟ فقلت: من الأندلس. قال: طينة حمقاء، فما الاسم؟ قلت: سلام. قال: اسم كلب القراد، ابن من؟ قلت: ابن زيد. قال: بحق ما صرف، أبو من؟ قلت: أبو خلف. قال: كنية قرد زبيدة، ما جئت تطلب؟ قلت: العلم. قال: ارجع بوقت، فإنّك لا تفلح. قلت له: ما أنصفتني، فقد اشتملت على خصال أربع: جفاء البلدية،

---

(١) **هو سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني** الحافظ أحد الأئمة **الأعلام** ، صاحب السنن كان رأساً في الحديث والفقه ، توفي بالبصرة سنة (٢٧٥هـ/٨٨٨م) . ابن أبي حاتم ، **الجرح والتعديل** ، ج٤ ص١٠١ ؛ الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ٩ ص٥٥ .

(٢) السمعاني، **الأنساب**، ج٢، ص٦.

وبعد الشقّة، وغرّة الحداثة، ودهشة الداخل. قال: فترى حولي عشرين صبياً ، ليس فيهم ذو لحية غيري ، ما كان يجب أن تعرفني بها ؟ قال : فأقمت عليه عشرين سنة . قال : وكان سلام هذا يحسن العلم"[١] .

وهذه الحكاية تبين ما بلغه الجاحظ من صيت حسن ، كما تبين مرونته وليونته مع الآخرين ، كما أن الجاحظ وهو في شهرته هذه لم يأنف من تعليم الصبيان .

٣ـ مؤلفات الجاحظ:

تناول الجاحظ بقلمه أغلب أبواب المعرفة ، وكتب في جميع الفنون والآداب ، وقد قيل **لأبي العيناء**[٢] : " ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن"[٣] ؟

ولقد أكثر الجاحظ من التأليف، ولعل سبب كثرة ما ألف يعود لامتداد عمره، ولقضائه شطراً من حياته مريضاً،فاضطر إلى ملازمة بيته، وقطع فراغه بالكتابة ، وربما كان سوء منظره سبباً في انصراف الناس عنه، فعنى بتأليف الكتب، ليثبت للناس أن هذا الوجه الدميم قادر على تقديم الماتع النافع .

لقد ضاعت أغلب مؤلفات الجاحظ ، وبقى القليل منها، وهذا القليل كان شاهداً على عبقرية الجاحظ وإبداعه ، وعلى الرغم من اختلاف

---

(١) التنوخي ، أبو علي المحسن بن علي، (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) ، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** ، دار صادر ، (بيروت . ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ، ج٨ ص ٢٠٢ . ٢٠٣ ؛ ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١١٧ .

(٢) **هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي** ، بالولاء ، أديب فصيح . من الظرفاء ومن أسرع الناس جوابا . اشتهر بنوادره ولطائفه . خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم . كف بصره بعد بلوغه أربعين سنة من عمره . أصله من اليمامة ، ومولده بالاهواز ، ومنشأه ووفاته في البصرة . توفي سنة (٢٨٣هـ/٨٩٦م). الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ،ج٣ ص ١٧٠ ؛ الصفدي . **نكت الهميان في نكت العميان** ، علق عليه ووضع حواشيه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت . ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ، ص٢٦٥ .

(٣) الحصري ، **جمع الجواهر** ، ص ٧٦ .

المؤرخين في عدد كتبه ، إلا أن الثابت أن لكتبه قيمة كبيرة ، عرف قيمتها القاصي والداني ، ومنهم كبار رجال الدولة ، ففي مجلس **ابن العميد**[١] الوزير، جرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين لذلك القائل، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قيل للوزير: سكتَّ أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله، فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، ولم استصلحه لذلك"[٢] .

ولم تقف كلمة المؤرخين على إحصاء عدد مؤلفات الجاحظ ، فقد ذكر ياقوت الحموي عناوين كتب ورسائل الجاحظ، وبلغ مجموعها (١٣٠) مؤلفاً[٣] .

وقال علي بو ملحم إن " تراث الجاحظ الضخم الذي نعرف منه أسماء نحو مائتي مؤلف، وصلنا منها ثلاثون كتاباً ، وحفظت أجزاء من خمسين، وضاع سائره"[٤] .

وأهم ما كتبه الجاحظ في المعلومات التاريخية والاجتماعية، الكتب والرسائل الآتية : البخلاء ، والبيان والتبيين، والحيوان، ومقالات الزيدية ، ومقالات العثمانية، وكتاب إمامة معاوية بن أبي سفيان، وكتاب فضل هاشم

---

(١) **هو علي بن محمد بن الحسين**، أبو الفتح ابن العميد ، وزير، من الكتاب الشعراء الأذكياء، يلقب بذي الكفايتين. وهو ابن أبي الفضل (ابن العميد) الوزير العالي الشهرة المتوفى سنة (٣٦٠ هـ/٩٧١م) خلف أباه في وزارة ركن الدولة البويهي بالري ونواحيها سنة (٣٦٠ هـ/٩٧١م)ولقبه الخليفة الطائع لله بذي الكفايتين (السيف والقلم) واستمر إلى أيام مؤيد الدولة (ابن ركن الدولة) وأحبته القواد وعساكر الديلم، لكرمه وطيب أخلاقه، فخاف آل بويه بالعاقبة، فقبض عليه مؤيد الدولة وعذبه ثم قتله سنة (٣٦٦هـ /٩٧٧ م) . ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٤ ص١٨٨٦ ؛ الذهبي : **تاريخ الإسلام** ، ج٨ ص ٢٥٨.

(٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٤٧٣.

(٣) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ص ٢١١٧ .

(٤) الجاحظ . **رسائل الجاحظ (الكلامية)**، ص ٥ مقدمة المحقق .

على عبد شمس، ورد النصارى، ورسالة في مدح التجار، ورسالة في الوكلاء، وطبقات المغنين، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات، وغش الصناعات، والأخطار والمراتب والصناعات، وكتاب النواميس (في حيل أهل الغش والتدليس)، وحيل المكدين، وأخلاق الشطار، وكتاب الأخبار، ورسالة أبي حسان في أمر الحكمين وتصويب رأي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورسالة في إثبات إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ورسالة في بني أُمية، ورسالة في العباسية، ورسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم، وكتاب القحطانية والعدنانية، وكتاب العرب والموالي، وكتاب العجم، وفخر عبد شمس ومخزوم، وفي فضائل سلالة النبي (ﷺ) ، وإمامة ولد العباس، وكتاب الصرحاء والهجناء، وكتاب فصل مابين الرجال والنساء، وكتاب أطعمة العرب، وكتاب الإخوان، وكتاب أمهات الأولاد، وكتاب العالم والجاهل، وكتاب الصوالجة، وكتاب النرد والشطرنج، ورسالة الحلبة، ورسالة في الحاسد والمحسود، وفي تفضيل النطق على الصمت، ورسالة في استنجاز الوعد، والشارب والمشروب، وذم اللواط، وكتاب الوعد والوعيد، وكتاب الإنس والسلوى، وكتاب تحسين الأموال، وكتاب الحزم والعزم[1] ، فضلاً عن رسائل وكتب أخرى في مواضيع تاريخية واجتماعية ، منها التبصر بالتجارة موضوع هذه الرسالة .

٤ـ مكانته العلمية :

إن المكانة العلمية المرموقة للجاحظ لا تكشفها كثرة مؤلفاته وتنوعها ، ولا القيمة العلمية لهذه المؤلفات ، أو مكانته عند الخلفاء والوزراء فحسب ، بل تظهرها أقوال العلماء وثنائهم عليه ، وليس المراد هنا استقصاء كلّ ما قيل بحقه ، فهذا ما لا تحيط به رسالة بمثل هذا الحجم، لذلك سأقتصر على بعضها :

ذكر ياقوت الحموي عن ابن العميد قوله : " ثلاثة علوم الناس كلهم

(١) بروكلمان ، **تاريخ الأدب العربي** ، ج٣، ص١٠٦-١٢٨.

عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة ؛ لأنه دوّن وخلّد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، فعلى أبي عثمان الجاحظ "[1] .

" وكان يقال: أربعة لم يُلحقوا ولم يسبقوا: أبو حنيفة في فقهه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره "[2].

ويقول عنه ثابت بن قرة : " ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فإنه:

عقم النساء فلا يلدن شبيهه ... إنّ النساء بمثله عقم"

ثم ذكر عمر بن الخطاب (ﷺ) والحسن البصري (ﷺ)، والجاحظ الذي قال فيه :

" والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره المتقدمين والمتأخرين، إن تكلّم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظّام في الجدال، وإن جدّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزبّد، حبيب القلوب، ومراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفا، ولا تعرّض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلّم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره وفشت حكمته، وظهرت خلته، ووطىء الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب. هذا قول ثابت بن قرة ، وهو قول

([1]) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١١٦ .

([2]) الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) . **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار النهضة، (مصر . ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ص١٧٠.

صابئ لا يرى للإسلام حرمة، ولا للمسلمين حقاً، ولا يوجب لأحد منهم ذماماً، قد انتقد هذا الانتقاد، ونظر هذا النظر، وحكم هذا الحكم، وأبصر الحقّ بعين لا غشاوة عليها من الحول، ونفس لا لطخ بها من التقليد، وعقل ما تخبّل بالعصبية. ولسنا نجهل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر والخلف الصالح، ولكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منّا ولا من أهل ملتنا ولغتنا، ولعله ما خبر عمر بن الخطاب كلّ الخبرة، ولا استوعب كلّ ما للحسن من المنقبة، ولا وقف على جميع ما لأبي عثمان من البيان والحكمة، يقول هذا القول، ويتعجّب هذا العجب، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد، ويختم كلامه بأبي عثمان ويصفه بما يأبى الطاعن عليه أن يكون له شيء منه، ويغضب إذا ادعي ذلك له وإنه لموفر عليه، هل هذا إلا الجهل الذي يرحم المبتلى به"[1] .

وحكي عن أبي حيان التوحيدي قوله عن الجاحظ : " لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة "[2] .

وقيل : "ولا تنطبق كلمة أديب، بكل معانيها، على كاتب عربي بقدر ما تنطبق على الجاحظ، معلِّم أهل القلم في عصره وبعد عصره. موسوعة علمية شاملة، على قوة شخصية وقدرة إبداع وخفة روح وسلامة ذوق، تلك هي أهم خصائص أديبنا الذي تعلم كتبه العقل أولاً "[3].

وتظهر مكانة الجاحظ أيضاً في أثره في المؤلفين والمفكرين الآخرين الذين تلوه ، فقد أصبحت مؤلفاته مصدراً معرفياً مهماً للكثيرين وبعضهم نهج منهجه في الكتابة، ومنهم " تلميذه المبرد صاحب كتاب الكامل ، وابن الفقيه صاحب تقويم البلدان ، والثعالبي .. والبيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ

---

(١) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١١٢ . ٢١١٤ .

(٢) ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء** ، ج ٥ ص ٢١١٤ .

(٣) جبر، جميل. **نوادر الجاحظ**، دار الأندلس، (بيروت . ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) ، ص٥-٧.

... وأثر كتاب الحيوان في رسائل إخوان الصفا.. وقد أخذ منه القزويني والدميري وهما من علماء الحيوان "[١] .

وأثارت مؤلفات الجاحظ آراء المؤلفين فيما بعد بين مادح وذام له، وكتب أبو حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ/١٠١٠م) كتاباً أسماه (تقريظ الجاحظ) ، ألفه " للإشادة بفضل أبي عثمان ، فتقمص فيه روحه، وساير أسلوبه، وتأثر طريقته حتى لكأن مؤلفه الجاحظ نفسه"[٢] ، وهذا الكتاب مفقود، ولكن ياقوت الحموي ذكر بعضاً منه قائلاً: " قال أبو حيان في كتاب تقريظ الجاحظ : إني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة: لو اجتمع الثقلان على تقريظهم، ومدحهم، ونشر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم، ومصنفاتهم ورسائلهم، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، احدهم: هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة، وبسببه جشمنا هذه الكلفة ، اعني : أبا عثمان، عمرو بن بحر "[٣] .

وممن نقد الجاحظ المسعودي، الذي نقد كتاب (الأمصار وعجائب البلدان) للجاحظ، فقال : " هو كتاب في نهاية الغثاثة ؛ لان الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار ولا تقرى المسالك والأمصار وإنما كان حاطب ليلٍ، ينقل من كتب الورَّاقين، أولم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض القنوج من مملكة بؤورة وأرض قشمير والقفندار والطافر حتى ينتهي إلى بلاد المولتان ...." [٤] .

كما أن بعض المحدثين ضعفوه ، ونقدوا فيه بعض ممارساته ، فالذهبي مع إشادته بالجاحظ إلا أنه ذكر ما قيل فيه من طعون بقوله : "

---

(١) خورشيد ، إبراهيم زكي ، وأحمد الشنتناوي ، ومحمد ثابت الفندي ، والدكتور عبدالحميد يونس ، ، **دائرة المعارف الإسلامية** ، ط٢ ، مطابع الشعب ، (مصر . ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ، ج٦، ص٢٣٨.

(٢) محي الدين ، عبد الرزاق ، **أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره**، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، ص٢٥٢.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء** ، ج١ ، ص٢٥٩ .

(٤) **مروج الذهب** ، ج١، ص٨٦.

وكان واسع النقل كثير الإطلاع ، من أذكياء بني آدم وأفرادهم وشياطينهم.قال أبو العباس ثعلب: ليس بثقة ولا مأمون "[١] .

وفي موضع آخر قال الذهبي : قلت: يظهر من شمائل الجاحظ أنه يختلق"[٢] .

ونقل عن أبي العيناء قوله : " أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك ، فأدخلناه على الشيوخ ببغداد ، فقبلوه ، إلا ابن شيبة العلوي، فإنه قال: لا يشبه آخر هذا الحديث أوله. ثم قال الصفار: كان أبو العيناء يحدث بهذا بعد ما تاب. قيل للجاحظ: كيف حالك؟ قال: يتكلم الوزير برأيي، وصلات الخليفة متواترة إلي، وآكل من الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأنا صابر حتى يأتي الله بالفرج. قيل: بل الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحب أن ألي الخلافة، ويختلف إلي محمد بن عبد الملك . يعني الوزير. "[٣] .

ثم قال : " كفانا الجاحظ المؤونة ، فما روى من الحديث إلا النزر اليسير، ولا هو بمتهم في الحديث، بلى في النفس من حكاياته ولهجته، فربما جازف، وتلطخه بغير بدعة أمر واضح، ولكنه إخباري علامة، صاحب فنون وأدب باهر، وذكاء بيّن عفا الله عنه "[٤] .

فهذه كلمة منصفة ، فالجاحظ إخباري أديب مبدع لا شك في ذلك؛ ولكنه ليس بصاحب حديث .

---

(١) **تاريخ الإسلام** ، ج٥ ص ١١٩٣ .

(٢) **سير أعلام النبلاء** ، ج١١ ص ٥٢٨ .

(٣) **سير أعلام النبلاء** ، ج١١ ص ٥٢٩ .

(٤) **سير أعلام النبلاء** ، ج١١ ص ٥٣٠ .

الخاتمة

بعد انتهاء الباحث من كتابة فصول الرسالة تبين له من خلال ما درس الامور التالية:

١. إن هذه الرسالة تعدّ من المؤلفات المتقدمة في الاقتصاد الإسلامي .
٢. إن الوصايا التي قدمها الجاحظ هي للمبتدئين في التجارة ، إذ إن الجاحظ لم يعرف عنه أنه كان تاجراً كبيراً ، وأن معلوماته مستقاة من التجار إذ لم يعرف أنه قد ألف كتاباً سابقا لكتابه يبين خصائص السلع ، كما أن المعلومات الواردة فيه لا يكاد يغفل عنها التجار المتخصصون ، وإنما من رغب في التجارة ، وهذا يوافق الغرض من كتابة الرسالة .
٣. إن تعدد الأصناف التي ذكرها الجاحظ يبين أن الراغب بالتجارة لم يكن له هدف محدد بل كان يرغب بالاتجار بكل ما تيسر ، أو أن الجاحظ استرسل في ذكر هذه المنافع من قبيل الإحاطة بالموضوع.
٤. حرص الجاحظ على ذكر أهم ما يتجر به من التحف والطرائف والنفائس ، وذلك ببيان أفضل أنواعها ، وكيفية امتحانها وبيان المغشوش منها .
٥. بيّن خصائص المدن التجارية ، وما تشتهر به كل مدينة من السلع المختلفة .
٦. ركز في ذكر المدن والتجارة على البلاد الواقعة شرق العراق ، ولم يذكر مدناً وبلاداً مشهورة بالتجارة أو بالسلع مثل الشام والمغرب العربي ، كما لم يستوعب المدن المهمة الواقعة شرق العراق أيضاً.
٧. ذكر الجاحظ من السلع : الذهب والفضة ، والأحجار الكريمة ، والعطور ، والمنسوجات والمفروشات ، والأدوية ، والجوارح ، ولم يستوعب جميع الأصناف المهمة من هذه السلع .
٨. ذكر بعض القواعد الاقتصادية التي تصلح أن تكون مرشداً للتجار في

تعـاملهم وفـي عملهـم ، وقـد اقتصـر فيهـا علـى تجـارب الشـعوب أو علـى رؤيتــه الخاصــة ولــم يوظــف التــراث الإســلامي مــن القــرآن والحــديث النبوي الشريف .

٩. تـأثر الجـاحظ علـى مـا يبـدو بالتجـار الفـرس فـي كتابـه هـذا ، ويبـدو هـذا واضـحاً فـي التركيـز علـى المـدن الفارسـية مـن جهـة ، واسـتخدام الألفـاظ الفارسية أيضاً .

١٠. علـى الـرغم مـن صـغر رسـالة الجـاحظ إلا أنهـا شـكلت قاعـدة عامـة لغيـره من المؤلفين في استقصاء خصائص المدن والسلع .

ومن الله العون والتوفيق

الباحث